التداخل المصطلحي في المدونة البلاغية القديمة
. مصطلح الحجاج . أنموذجا

دكتورة صالحة عوادي
aouadisaliha04@gmail.com:
جامعة حسيبة بن بوعلي الشلف – الجزائر

الملخص:
لا يختلف اثنان في أن البلاغة العربية من العلوم الجليلة التي ظلت متوارثة،على الرغم من اعتبار البعض لها أنها زخرف وتنميق الكلام،إلا أن المتصفح لأهم مصادها القديمة يكتشف أن الهدف منها هو الاقناع، فالغاية الرئيسية من البلاغة هي غاية حجاجية.
تهدف هذه الدراسة إلى التنبيق عن الجهاز المصطلحي – المصطلح الحجاجي- في ثنايا مدونات التراث البلاغي فتعرضنا لمفهوم الحجاج بين اللغة الاصطلاح،ثم عرجنا على عنصر الحجاج بين الرافد و المحدث ،ثم علاقة الحجاج بالبلاغة، المصطلح الحجاجي عند أقطاب البلاغة العربي((آلة البلاغة عند الجاحظ، بيان الحجة عند اسحاق بن وهب، السكاكي والمصطلح الحجاجي، الحجاج عند حازم القرطاجني)).
الكلمات المفتاحية : البلاغة – الاحتجاج- االمجادلة-لبيان- الاستدلال – الإفهام –الإقناع- الشاهد- الحجة - القياس .

مقدمة:

إذا كانت اللغة هي وسيلة التواصل المثلى، فإن الحجاج هو شكل من أشكال هذا التواصل، وحالة من حالاته التي يسعى فيها المتكلم إلى التأثير على السامع بجلب انتباهه أولا وإقناعه وكسب تأييده، أو إفحامه وغلبته ...وانطلاقا من هذا المفهوم يمكن أن ندرك سمات النص الحجاجي، فهو نص "يسعى إلى الإقناع، ويقدم البراهين التي تسمح لفكر ما أن يعلو على فكر أو غلبة موقف على موقف، أو رأي على رأي.[1]"،ولا شك أن الحجاج . مثله كمثل أي عملية تواصلية . لا يمكن أن يتم وتتحدد طبيعته إلا في ضوء المعطيات التي يتضمنها السياق أوالمقام.

<u>الحجاج من المنظور اللغوي و الاصطلاحي:</u>

الحجاج له موقع واضح في المدونة اللغوية، بدءا بالمصنفات الأولى التي عملن على الحفر المعرفي لتحديد الجذر اللغوي ومعرفة دلالته اللغوية .

يورد ابن المنظور في معجمه لسان العرب الحجاج فيقول :" الحجة، والبرهان، وقيل الحُجَة ما دافع به الخصم " وقال الأزهري: الحجة التي يكون بها الظفر عند الخصومة، وهو رجل مِحْجَاجٌ أي جدِلٌ والتَّحَاجُ التخاصم وجمع الحجَّة ، حُجَجٌ وحِجَاجٌ وحاجَّه محاجةً، و حِجَاجاً نازعه الحُجَّة، وحَجَّه يحُجُّه حجًّا غلبه على حجته، وفي الحجة الدليل والبرهان، يقال حاججته فأنا مُحَاجٌ و حَجِيجٌ فعيل بمعنى فاعل"[2].

أما ابن فارس في معجمه " مقاييس اللغة " فيورد الحجاج على النحو التالي:" يقال حَجَّجْة فلانًا فحَجَّجْته أي غلبته بالحجة، و ذلك يكون عند الخصومة و الجمع حُجَجٌ و المصدر الحجاج "[3].

و كذلك يقف الزمخشري على كلمة الحجاج في كتابه "أساس البلاغة" حيث قال:" حَجَجَ: احتج على خصمه بِحجَّة شَهْبِاء، و بحُجَجٍ شَهْبٍ، و حاجَّ خصمه فحَجَّهُ، و فلان خصمه محْجُوجٌ و كانت بينهما مُحَاجَّةٌ و مُلاَجَّةٌ "[4]

يتجلى من خلال هذه القراءة الواصفة لمصطلح الحجاج من خلال هذه المدونات اللغوية للعرب القدامى أنهم يشتركون في نقطة واحدة؛ هي أن الحجاج يكون أثناء الخوار (المخاصمة) بين شخصين، حيث اعتبروا الحجة كوسيلة يلجأ المخاطب أو المرسل إلى استعمالها بغية التغلب على خصمه ، و هذا ما ورد في التعريف الأول ،" الحجة ما دوفع به الخصم "، و التعريف الثاني " حاججت فلان فحججته أي غلبته بالحجة ...الخصومة"، و في التعريف الثالث: :" احتج على خصمه بحجة شهباء"، و لهذا فالحجاج عند العرب القدامى يحمل طابع المنازعة و الخصومة نظرا لما يحدث بين شخصين من محاورة.

و قد ورد لفظ الحجاج في القرآن الكريم في مواضع عديدة نورد بعضهاقال تعالى ((**هَا أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ**))الآية(66) [5]، و قال تعالى في مورد أخر : ((**وحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ**))الآية (80)[6]، و قال تعالى: ((**وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ**)) الآية(16)[7]،و قال تعالى: ((**وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ**))الآية(47) [8].

من خلا ل هذه الآيات يبدو جليا أن لفظ الحجاج بدا ظاهرا في القرآن الحكيم و كان يتموقع معناه في الجدل والمحورة و المخاصمة .

الحجاج اصطلاحا:

فتذهب معظم التعاريف الاصطلاحية للحجاج على أنه عبارة عن علاقة تخاطبية بين المتكلم و السامع، و هذا الأخير له حق الاعتراض، و في هذا الصدد يعرفه طه عبد الرحمن :" هو كل منطوق به موجه إلى الغير لإفهامه دعوى مخصوصة، يحق له الاعتراض عليها"[9]،و يتوسع طه عبد الرحمن في هذا المفهوم أكثر حين قارن الحجاج بالبرهان حيث أعطى للحجاج صفتين رئيسيتين فقال:" فهو تداولي لأن طابعه الفكري مقامي اجتماعي، اذ يأخذ بعين الاعتبار مقتضيات الحال من معارف مشتركة و مطالب اختيارية و توجهات ظرفية، و يهدف إلى الاشتراك جماعيا في إنشاء عملية إنشاءً موجها بقدر الحاجة".يتمايز الحجاج بكونه ذا سمة جدلية تهدف إلى الإقناع من خلال صور استدلالية، فالحجاج أوسع من البرهان، ذلك أن الحجاج منحصر في قواعد المعرفة"[10]،فالحجاج بعدا جوهريا في اللغة في ذاتها ، مما ينتج عن ذلك أنه حيثما وجد خطاب العقل و اللغة، فإن ثمة إستراتجية معينة نعمد إليها لغويا و عقليا، إما لإقناع أنفسنا، أو لإقناع غيرنا، وهذه الاستراتجية هي الحجاج ذاته [11].

الحجاج بين الرافد و المحدث:

أولى العرب قديما و لاسيما البلاغيين منهم الكلام و التخاطب عناية كبيرة، فغمدوا إلى تقسيم وجوه الكلام و مناسباته عن المعنى فذلك هو الحجاج الذي يهدف إلى الإقناع ، فلا غلو في القول بأن الحجاج بجذوره القوية في الخطاب العربي، فضلا عن الدور الذي لعبه الحجاج في الحياة العقدية و السياسية في البيئة العربية الإسلامية، و فضلا عن اعتماد البنية الحجاجية في الخطاب البلاغي على نحو ما نرى دفاع عبد القاهر الجرجاني عن إعجاز القرآن الكريم، بإقناع الناس بفكرة النظم"[12]، ظف إلى ذلك ما قدمه الجاحظ في كتابة "البيان و التبيين"و تشديده على الغرض الافهامي و الاقناعي للبلاغة و هذا راجع إلى المرجعية الفكرية لديه وكان يركز على الفهم والإفهام والإبانة، و الوضوح و الفصاحة، و اعتداده بالأفكار الجدلية و الآراء الاستدلالية، و نحن نقف على الحجاج لا يمكن أن نتجاوز إسحاق ابن وهب في كتابه"البرهان في وجوه البيان"الذي تعرض للجوانب المتعددة التي تحيط بالحجاج من بينها الجدل و المجادلة ، و تحدث عن أدب الجدال، و أشار إلى البرهان، و الاستدلال و القياس ....أيضا السكاكي و العسكري و غيرهم من البلاغين القدامى.

تعود أهمية الحجاج في الدراسة الحديثة إلى العودة القوية للبلاغة تحت ما يسمى البلاغة الجديدة، التي ركزت على جانبين أساسيين " البيان"و الحجاج كوسيلة أساسية من وسائل الإقناع، فمنذ نهاية عقد الخمسينات في القرن العشرين عرفت مباحث الدراسات البلاغية صحوة نوعية، فكانت الدعوة إلى ما يسمى بالبلاغة الجديدة ، و هي محاولة لإقامة علم عام لدراسة الخطابات بأنواعها، فأصبحت تسعى لأن تكون علما واسعا يشمل حياة الإنسان كلها في المجتمع، فهي محاولة لوصف الخصائص الإقناعية للنصوص، عملت اللسانيات و التداولية و نظريات التواصل على إنضاجها، فالمناهج اللسانية الحديثة التي تأثرت بها البلاغة وتنظر إلى اللغة كنسق تتفاعل عناصره في إطار علائقي ، يرفض دراسة الكلمات في ذاتها، و قد انبثقت عن هذا كله البلاغة البرهانية الجديدة[13] .

علاقة البلاغة بالحجاج:

هناك الكثير ممن يعتبر أن الهدف من البلاغة العربية هو الزخرف و التزيين و التنميق في الكلام، إلا أن المتصفح لأهم مصادرها القديمة، يكشف أن الهدف منها هو الإقناع، فالغاية الرئيسية للبلاغة العربية هي غاية حجاجية بالدرجة الأولى .

لا تكاد تخلو كتب التراث الإسلامي من تداول مصطلح "حجاج"أو "الاحتجاج" أو"المحاجّة" في عدة مجالات وخصوصا في المسائل ذات الطابع الفكري و الفلسفي ،التي كثيرا ما يعتريها الخلاف في وجهات النظر، فهو مستعمل في علوم النحو و اللغة والبلاغة الحديث و الفقه و الأصول و علم الكلام...،فقد عُدّ الحجاج من المصطلحات التي تعتاص عن التموقع فقد عرفت العديد من التعريفات من بينها ما ذهب إليه أبو الوليد الباجي حين قال :" و هذا العلم من أرفع العلوم قدرا و أعظمها شأنا لأنه السبيل إلى معرفة الاستدلال، و يميز الحق من المحال، و لولا تصحيح الوضع في الجدل لما قامت حجة و لا نصحت محجة و لا علم الصحيح

من السقيم و المعوج من المستقيم "[14]، يظهر أن الحجاج يصنف ضمن أحد من العلوم له أركانه و طرائقه ووجوهه المميزة له، المحددة لماهيته و غاية هذا العلم هو معرفة الحقيقة، و التمييز الدقيق بين الحق والباطل.

ولقد كان للحجاج حضوره في البلاغة العربية التي شكل البرهان والإقناع أحد أهم مباحثها، ويمكن القول إن البلاغة العربية ظل يتجاذبها جانبان أساسيان هما جانب التواصل والإبلاغ، وجانب الفن والجمال؛ الدلالة والإبلاغ بما يعنيانه من دقة ومباشرة ووضوح وإقناع، والفن والجمال بما يفرضانه من غموض و تخيل وإمتاع والدليل على ذلك هو أن أغلب التعاريف التي أعطيت لها من قبل البلاغيين القدامى جاء على هذا النحو، فأبو الهلال العسكري مثلا صاغ مفهوما خاصا بالبلاغة حيث قال :" البلاغة كل ما تبلغ به المعنى قلب السامع فتمكنه في نفسك مع صورة مقبولة و معرض حسن"[15]و قال في مورد آخر:" البلاغة هي التقرب من المعنى البعيد والتباعد عن حشو الكلام، و قرب المأخذ و إيجاز في الصواب، و قصد إلى الحاجة و حسن الاستعارة "[16] يتراء أن كلا المفهومان يحملان تعريفا واحدا للبلاغة و هو الوضوح و الكشف عن المعنى، في حين نجد الحاجظ في مدونه "البيان و التبيين"يورد بأن "جماع البلاغة البصر بالحجة و المعرفة لمواضع الفرصة أن تدعي الإفصاح بها إلى الكناية عنها، و إذا كان الإفصاح أوعر طريقة و ربما كان الإضراب عنها صفحا أبلغ من الدرك و أحق بالظفر"[17] ويقول في موضع أخر:" البلاغة اجتماع آلة البلاغة، و ذلك أن يكون الخطيب رابط الجأش، ساكن الجوارح قيل اللحظ، متخير اللفظ، لا يكلم سيد الأمة و الملوك بكلام السوقة، و يكون في قواه فضلال التصرف في كل وظيفة "[18]و أورد الجاحظ أيضا ان ابن المقفع قال:"البلاغة اسم جامع لمعن تجري في وجوه كثيرة فمنها ما يكون في السكوت و منها ما يكون في الاستماع، و منها ما يكون في الإشارة، و منها ما يكون في الاستماع، و منها ما يكون في الإشارة و منها ما يكون في الاحتجاج"[19]، لا جرم أن هذه التعريفات التي أوردها الجاحظ تنحوا منحى المفهوم الذي قدمه العسكري فكلاهما يخولان البلاغة وظيفة إقناعية ، و يذهب الجاحظ إلى الاهتمام بالخطاب الاقناعي الشفوي، الذي يقدم الغاية (الإقناع) على الوسيلة (اللغة) مع التزام المقام و الأحوال، يتضح بأن البلاغة تتطلب من المتكلم أن يعرف أقدار المعاني، و أن يوازن بينها و بين أقدار المستمعين.

فلا غلو من أن البلاغة لا يكتمل تأثيرها إلا بتوفر عنصر الحجاج فيها، و هنا تكمن حاجة البلاغة إلى الحجاج ، فهي في أول الأمر عتاد بنائي و تبليغي يوظفه الخطيب أو القائل لطرح أرائه و قناعاته من أجل كسب الإذعان من المتلقي و التأثير فيه، إلا أن الصور المجازية و اللغوية لا تكفي لتحقيق الهدف، أن نعتد بأدوات يوفرها الحجاج ليكتمل البناء، و يصل الخطاب إلى الأهداف المقصودة[20]

المصطلح الحجاجي عند أقطاب البلاغة العربي :

من أهم الظواهر الدالة على البعد الحجاجي في البلاغة العربية تلك المصطلحات التي يغلب عليها طابع البرهان والحجاج والإقناع، فهذه المصطلحات تركز على الحجة والإقناع، فقد عرف المصطلح الحجاجي أوجه مختلفة عند البلاغيين العرب ، باعتبار الحجاج يقوم على تقديم الحجج و الأدلة المؤدية إلى نتيجة معينة، وهو يتمثل في إنجاز تسلسلات استنتاجية داخل الخطاب، بعضها بمثابة الحجج اللغوية و بعضها بمثابة النتائج التي تستخلص منها.

لا جرم أن كتب التراث الإسلامي عرفت تداول مصطلح "الحجاج " و الاحتجاج"سواء كان هذا المصطلح ظاهرا أو مضمرا فهذا ما سنقف عنده من خلال ما سيأتي:

أ. آلة البلاغة عند الجاحظ:

لقد عاش الجاحظ في زمن صاخب بالجدل و المساجلات، و النظر و المقابسات، فتشرب النص القرآني، و المعارف الوافدة التي ساهمت في صقل منهجه الذي اعتمد على "الأدوات المنطقية و الآليات البرهانية و الحجج العقلية، و هذا الأمر يظهر جليا في خطابه و مدونته الموسوعية الزاخرة بالأفكار الجدلية و الآراء الاستدلالي، و اللغة البيانية"[21]، فلا يختلف اثنان بأن الجاحظ كان معتزلي ؛ مما جعله يعتبر اللغة و البلاغة هما سلاح المناظرين و المجادلين ، الذين يبتغون الإقناع بتوجه مذهبهم.

تعود أصول الحجاج عند الجاحظ إلى علم الكلام القائم على البرهنة العقلية، حيث يؤسس مواقفه الكلامية على براهين نظرية داعمة و مؤيدة[22]، فقد ورد هذا المصطلح واضحا في مقامات متعددة حين ربط البلاغة بهدف إقناعي منها قوله:" الاحتجاج على أرباب النحل و مقارعة الأرباب "[23]، ونجد الجاحظ يركز على بلاغة الكلام و الخطابات باسم"البيان" الذي يورده قائلا:"مدار الأمر و الغاية التي إليها يجري القارئ و السامع إنما هو الفهم و الإفهام،فبأي شيء بلغت الأفهام وأوضحت عن المعنى، فذلك هو البيان في ذلك الموضع"[24]، يتراء من خلال هذا القول أن من أوجه العملية الحجاجية الإبانة عن المقاصد و التعلق بأغراض وحاجات تجعل منه وسيلة إجرائية تحقق الرباط المطلوب بين المتكلم و المستمع ،إن الانجاز الكلامي لا يتم عبثا بل لتحقيق غايات منطلقها الأول الفهم و التبيين، و من ثم فلا كلام بدون وظيفة، والوظيفة هي الرحى في أي تبليغ لغوي، إنها غاية ما يروم المتكلم من السامع" [25]، يتراء بأن البلاغة كانت تركز على مقاصد المتكلم التي من خلالها يقع الفعل الكلامي الذي يتميز بالإفهام و التبيين، و يرد الإفهام عند الجاحظ بأنه" هو خلو الكلام من اللجلجة و التمتمة و اللثغة و الفأفأة و التقعير و التشديق"[26]، و تخير الألفاظ المتناسبة مع المقام و السامع مع الحرص على ابانة المعنى. فلا جرم أن البلاغة تغدو وسيلة للتأثير على المستمع، و الظهور عليه و إقناعه بالرأي.

فالقول البليغ منذور لتحويل حياة المتلقي أو معارضته إلى تجاوب ، في هذا يورد الجاحظ مالتمسه موسى بن عمران من ربه، حين استبدت به الرهبة من فرعون ((و أخي هارون أفصح مني لسانا فأرسله معي ردءاً يصدقني))، و يعقب الجاحظ على رغبة موسى " في غاية الإفصاح و المبالغة في وضوح الدلالة لتكون الأعناق إليه أميل و العقول عنه أفهم و النفوس إليه أسرع"[27] فلا ريب من أن الإفهام هو المعنى القائم في النفس حتى يدركه الأخر،و الإقناع ناتج عن مجموع مؤهلات وصفات انتقاها محمد العمري من كتاب "البيان و التبيين" للجاحظ التي تصور استمالة القلوب و ميل الأعناق، و التصديق و فهم العقول، و استمالة النفوس و غيرها من الصفات و الأغراض، حيث أوردها كما يلي:[28]

صفات البيان و موضوعه		الغرض
الصفات	الموضوع	التأثير
الإبلاغ	الدعوة إلى مقالة	استمالة القلوب
الإبانة	الإبلاغ عن نحلة	الإقناع
الإفصاح	إبلاغ الرسالة	التصديق
الفصاحة	الحجة	ميل الأعناق
الوضوح	المنازعة	فهم العقول
الصحة		إسراع النفوس
البيان		الاستمالة
حسن التفصيل		الاضطرار
الايضاخ		التحريك
وضوح الدلالة		حل الحيرة
الإفهام		
الفهم		
الاحتجاج		

لقد أورد الجاحظ مصطلح "البيان" الذي يمثل الصدارة في العملية الحجاجية ، فعدد مواصفاته وموضوعاته التي تراوحت بين" الإبلاغ و الإفصاح، و الإفهام،و الوضوح....." و أورد من جانب أخر الغرض من هذه المواصفات و الموضوعات التي تقوم على" تحريك النفس، و الاستمالة، وحل الحيرة،و التصديق والإقناع...."

فلا جرم من ان هذه المواصفات و الأغراض تعمد إلى تيسير العملية الحجاجية و بالتالي الإفهام و الإقناع، مع مراعات المقام و هذا ما أولاه الجاحظ اهتماما خاصا حين قال:" و المعنى ليس يشرف بأن يكون من معاني الخاصة، وكذلك ليس يتضع من المعاني العامة، و إنما مدار الشرف على الصواب و إحراز المنفعة مع موافقة الحال وما يجب لكل مقام من المقال"[29]، تكون مراعاة المقام شرطا لازما في كل تواصل بياني، و أورد أيضا محمد العمري مخططا اختصر فيه الإفهام و الإقناع و هو كالأتي:[30]

البيان عند الجاحظ

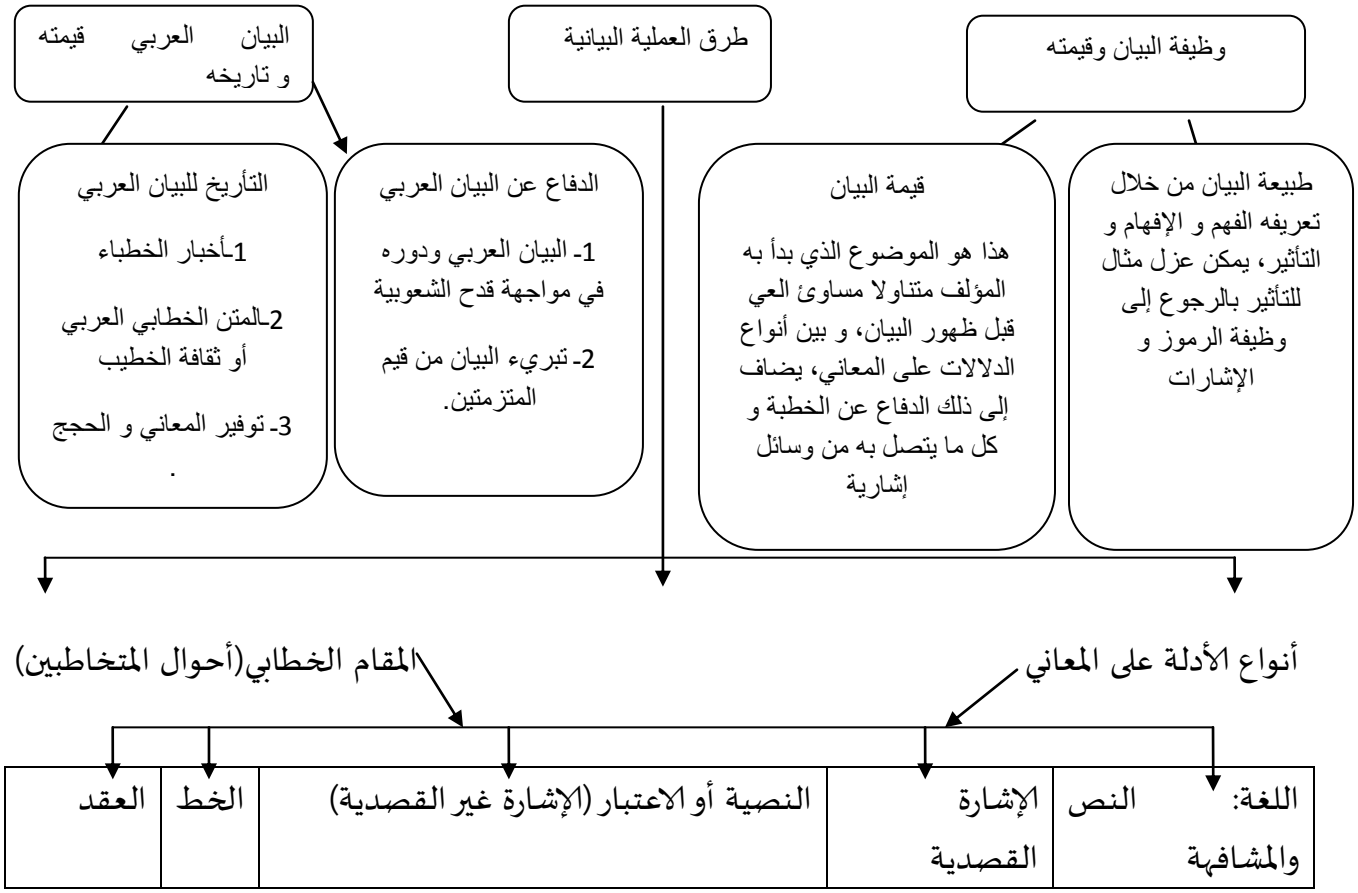

الإشارة الملتبسة بالإشارة البشرية غير صريحة القصد

نخلص إلى أن الجاحظ ركز على الخطاب البلاغي من جانبه الحجاجي و الاقناعي و الافهامي ، مع التركيز على المقام و أحوال السامعين،و ركز أيضا بصورة ملحة على اللفظ المنتقى و حتى صفات الخطيب الذي يقدم الحجج بغية إقامة العملية التواصلية التي تهدف إلى الإقناع و التأثير في المتلقي أو السامع و حدوث فعل الاستجابة .، و المصطلحات التي أوردها الجاحظ و تصب في سيل الحجاج بين الصفات و الموضوعات والغايات كما فصلنا فيها سالفا.

ب . بيان الحجة عند اسحاق بن وهب:

غير بعيد عن الأفق البياني الذي تميز به الجاحظ، ألف إسحاق بن وهب كتابه المسمى"البرهان في وجوه البيان"، الذي أولى أهمية بالغة "للبيان" تضاهي القيمة التي أولاه إياه الجاحظ، باعتباره وجها من أوجه الحجاج التي تعمل على نجاح العملية الاقناعية، " فقسم أبن وهب البيان إلى أربعة أوجه بيان الأشياء بذواتها، و يسميه بيان الاعتبار، و البيان الذي يحصل في القلب عند إعمال الفكر ؛و يسميه بيان الاعتقاد، و البيان باللسان و يسميه؛ بين العبارة و أخيرا البيان بالكتاب"[31]، ويظهر ذلك في دفاعه عن البيان المعرفي الذي يستشف من العمليات العقلية،و البيان عنده إقناعي، بحيث لا يقوم إلا بدليل أو شاهد.[32]

و يصنف ابن وهب الحجاج في مورد أخر ضمن أنواع النثر ، فورد هذا المصطلح صريحا في موضع مضمرا

في موضع آخر فقال:" فأما المنثور فليس يخلو أن يكون خطابة أو ترسلا أو احتجاجا أو حديثا، و لكل واحد من هذه الوجوه موضع يستعمل فيه"[33].

في موضع أخر ربط الحجاج بالجدل و المجادلة حين قال :" أما الجدل و المجادلة فهما قول يقصد به إقامة الحجة فيما اختلف فيه اعتقاد المتجادلين ..."[34]، فالجدل عند بن وهب خطاب تعليلي إقناعي " فإذا كان الجدل إظهار الحجة التي تقنع فالغالب هو الذي يظهر ذلك"[35] يتراء من خلال هذا القول أن ابن وهب وضع مصطلح الحجاج تحت اسم الجدل، فهو يقع في العلة من بين سائر الأشياء و ينبغي للمجيب أن يقنع، و أن يكون إقناعه يوجب على السائل القبول ، و أدرج ابن وهب في نفس السياق التميز بين الجدل المحمود والممذموم أو ما يعرف بأخلاق الجدل أو أدب الجدل، و هذا ما يمكن تصنيفه الآن ضمن الاستراتجيات الاتصالية الحجاجية .

أولى ابن وهب قيمة للاستدلال و الإقناع التي ارتبطت بالاتجاه الخطابي، "فالظاهر مستغن بظهوره عن الاستدلال عليه و الاجتماع عليه لأنه لا خلاف له، و الباطن هو المحتاج إلى أن يستدل عليه بضروب الاستدلال "[36] ، فابن يذهب إلى أن الاستدلال يتدخل في " الخفي" بغية إظهاره ، ضف إلى ذلك اهتمامه بالقياس حين قال:" و ليس يجب القياس إلا عن قول يتقدم فيكون القياس نتيجته ، كقولنا إذا كان الحي حساسا متحركا فالإنسان حي ...."[37] مما يتراء أن ابن وهب أولى أهمية للقياس في مواضع الاختلاف و الالتباس.

ضف إلى ذلك انه ركز أيضا على " الشاهد" في إقامة الحجة و حتى إقناع السامع ،يقول في ذلك:" و أما الظن فإنه و إن قويت شواهده و عضده من الرأي ما يوجبه فإنما يجب العمل عليه"[38]؛ فابن وهب في هذا الصدد يبتعد عن الغلو في رفض الظن الذي يقام بشاهد تثبت صحته.

لا غرو أن ما يثبت جليا أن المصطلح الحجاجي جاء صريحا في أغلب المواقف عند ابن وهب، و هذا ما جعل السمة الاقناعية تخلب على الخطاب البلاغي عنده، فورد المصطلح الحجاجي عند ابن وهب " الحجاج والاحتجاج ،البيان، الجدل و المجادلة ، القياس الاستدلال ، الشواهد....." فكان هذا الجهاز المفاهيمي الذي توسم به مشروعه البلاغي.

<u>جـ السكاكي و المصطلح الحجاجي:</u>

وصلت البلاغة العربية مرحلة التقعيد مقترنة بالجمع و التصنيف فيستوقفنا في هذه المرحلة مفتاح العلوم للسكاكي الذي قسمه إلى ثلاثة أقسام ؛ علم الصرف، علم النحو، علمي المعاني و البيان ، فقد ارتبطت البلاغة بالمنطق عند السكاكي مما جعل بعض جوانب بلاغته اقناعية، و ذلك ما يفصح عنه تصوره للبلاغة ومباحثها، و اهتمامه بالمقام و المستمع، و انتباهه للاستدلال و اللزوم في البيان [39] عمل السكاكي على بناء بلاغة الخطاب على نظام استدلالي و ليس على المنزع البديعي، بحيث يصبح البيان مؤسسا على نظام العقل.

مما يجعل البلاغة معرفة واستدلالا ،يتراء بأن السكاكي لا يكتفي بالتخييل أو الأسلوب الفني في البلاغة بل يستقي الأفكار التي تستدعي إعمال العقل و بالتالي استحضار الدليل و الاستدلال[40] فيقول في هذا الصدد: وعندك علم أن مقام الاستدلال بالنسبة إلى سائر مقامات الكلام جزء واحد من جملتها، وشعبة فردة

من دوحتها وعلمت أن تتبع تراكيب الكلام الاستدلالي و معرفة خواصها مما يلزم صاحب علم المعاني و البيان"[41].

ضف إلى ذلك أنه أولى أهمية لعلم النحو في العملية الاقناعية و هذا ما أخذت به الدراسات الحديثة فيما يعرف بالعوامل و الروابط الحجاجية.

لا جرم أن بلاغة السكاكي طبعت بالنجاعة التواصلية و البعد الإقناعي ، باعتبارها ركزت على المقام والمستمع وجعلتهما مدار علم البيان و المعاني ، حيث يؤكد السكاكي على طبيعة المقام، و فعالية القول، في مناسبته لمقتضى الحال ، يورد في هذا قوله:" لا يخفى عليك أن مقامات الكلام متفاوتة، فمقام التشكر يباين مقام الشكاية ، و مقام التهنئة يباين مقام التعزية .....و مقام البناء على السؤال يغاير مقام البناء على الإنكار"[42] ويركز السكاكي على المقام الخارجي للمقال زيادة على ذلك يركز على العلاقات بين المكونات اللغوية حين قال :" لكل حد ينتهي إليه الكلام مقام ....فلكل كلمة مع صاحبتها مقام"[43].

و يركز السكاكي في موقف أخر على" مقصدية "؛ أي الاهتمام بالمستمع مع ما يتماشى و حال المخاطب و يجيب عن حاجاته[44] ، فيقول في هذا الصدد:"فإذا اندفع المتكلم في الكلام مخبرا لزم أن يكون قصده إفادة للمخاطب "[45] فلابد أن تتماش صيغة القول مع حاجة المستمع.

من خلال الاهتمام الذي أولاه السكاكي بالمقام و المستمع و مقصدية القول مع مراعاة أحوال المستمعين يكون قد ربط البلاغة بالمقصد الإقناعي، فالاغلو من القول بأن المصطلح الحجاجي كان واردا في التفكير البلاغي عند السكاكي فشمل:" الاستدلال، الأدلة، المقام، المقصدية ،مقتضى الحال، الروابط الحجاجية و إن كان هذا الأخير من المصطلحات المضمرة .

د. الحجاج عند حازم القرطاجني:

لا جرم أن حازم القرطاجني قد زاوج بين مصادر الثقافة العربية و اليونانية في معالجته للقضايا البلاغية والنقدية، غير أن الأصول العربية كانت أكثر اعتمادا، فمن خلال كتابه "منهاج الأدباء و سراج البلغاء" ورد المصطلح الحجاجي في عدة مواضع ،فيقول:" لما كان كل كلام يحتمل الصدق و الكذب، إما أن يرد على جهة الإخبار و الاختصاص و إما أن يرد على جهة الاحتجاج و الاستدلال "[46].

الاستدلال و الاحتجاج و الإقناع في المناهج الدراسات الأدبية عند حازم القرطاجني ركيزة الخطاب في مقابل التخيل الذي هو الركيزة الأساسية في الشعر.

علم البلاغة

كذلك ميز القرطاجني بين طريقتين لاقناع الخصم و هما التمويهات و الاستدراجات، وهما من الاستراتجيات المهمة في عملية الإقناع قائلا في هذا الصدد:" التمويهات و الاستدراجات قد توج في كثير من الناس بالطبع

والحنكة الحاصلة باعتياد المخاطبات إلى تقوية الظنون مع أنه على غير ما هو عليه بكثرة سماع المخاطبات في ذلك والتدرب في احتذائها"[48] من الاستراتجيات الحجاجية التي تهدف إلى إقناع الخصم نجد التمويهات والاستدراجات "فالتمويهات تكون فيما يرجع إلى الأقوال ، والاستدراجات تكون بتهيؤ المتكلم بهيئة من يقبل قوله، أو استمالة المخاطب و استلطافه له بتزكيته و تقريظه..."[49] .

نجمل القول عن المصطلح الحجاجي عند حازم القرطاجني باعتباره قسم الادب إلى خطاب و شعر فغاية الشعر التخيل في حين أن غرض الخطاب هو الاقناع، فأشار إلى حقل مفهومي قام على الحجاج، والاحتجاج والاستدلال، التمويهات و الاستدراجات .

نخلص في الأخير إلى أن البلاغة العربية تجاوزت القيمة التخيلية و الفنية إلى القيمة الإبلاغية والافهامية للخطاب وذلك عن طريق الحجاج الذي يهتم بتقديم الحجج و الأدلة و البراهين التي تؤدي إلى نتيجة معينة ،و بالتالي لا غلو من القول أن للحجاج حضوره في البلاغة العربية التي شكل البرهان والإقناع أحد أهم مباحثها، ويمكن القول إن البلاغة العربية ظل يتجاذبها جانبان أساسيان هما جانب التواصل والإبلاغ، وجانب الفن والجمال؛ الدلالة والإبلاغ بما يعنيانه من دقة ومباشرة ووضوح وإقناع، والفن والجمال بما يفرضانه من غموض وتخييل وإمتاع، فمن البلاغيين الذين أعطوا اهتماما بالغا لهذا الموضع نجد الجاحظ، ابن وهب والسكاكي، والعسكري، وحازم القرطاجني؛ فعرف هذا الموضوع . الحجاج . جهازا مفاهيمي يتضمن العديد من المصطلحات وردت في مؤلفات أقطاب البلاغة العربية منها :" الحجاج، الاحتجاج، والمحاجة، الجدال والمجادلة والقياس والبرهان والاستشهاد، والاستدلال ....."

---

[1]. محمد مكسي، استراتيجيات الخطاب الديداكتيكي، منشورات رمسيس، الرباط، 1998م، ص 23

[2]. ابن المنظور، لسان العرب،دار صادر بيروت، ط1، مج2، 1990، ص228.

[3]. أحمد بن فارس ، مقاييس اللغة، دار الجيل بيروت، ط1، مج2، 1991، ص30.

[4]. أبو القاسم محمود بن أحمد الزمخشري، أساس البلاغة ، دار صادر، بيروت، ص113.

[5]الاية (66) آل عمران.

[6]الاية:(80)الأنعام.

[7]. الاية :(16)الشورى.

[8]. الاية:(47)غافر.

[9]. طه عبد الرحمن، في أصول الحوار و تحديد علم الكلام، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء، 2000،ص 65.

[10]. المرجع نفسه،ص 65.

[11]. ينظر:عمر بوقمرة، الأفق الحجاجي في نظرية النظم عند عبد القاهر الجرجاني، علم الكتب الحديث،الاردن،2017 ،ص99

[12]. محمد العيد، النص الحجاجي العربي، دراسة في وسائل الاقناع،ص45.

[13]. عيسى حباشة، مصطلح الحجاج بواعثه و تقنياته، مجلة أبحاث في اللغة و الادب الجزائري بسكرة،ع2013،9 ص268.

[14]. أبو الوليد الباجي، المنهاج رفي ترتيب الحجاج ، تح: عبد المجيد التركي، دار المغرب الإسلامي، المغرب،ط2، 1987،ص08.

[15]. أبو هلال العسكري، كتاب الصناعتين،تح: محمد البجاوي، منشورات المكتبة العصرية،بيروت،ص10.

[16]المصدر نفسه،47.

[17]. الجاحظ، البيان و التبيين، شر:عبد السلام محمد هارون،دار الجيل بيروت،دط ص88

[18]. المصدر نفسه،ص69.

[19]. المصدر نفسه،ص 115.

[20]. حبيب أعراج ، الحجاج و الاستدلال الحجاجي عناصر الاستقصاء النظري، عالم الفكر،ع1 مجلد3،2001، ص62.

[21]. هيثم سرحان، الحجاج عند الجاحظ "بحث في المرجعيات و النصيات و الآليات " المجلة العربية للعلوم الإنسانية،جامعة الكويت،ع/115 2011،ص58.

[22]. المرجع نفسه، ص 60.

[23]. الجاحظ، البيان و التبيين، ص14

[24]المصدر نفسه ص،76.

[25]. ينظر: عبد اللطيف عادل، بلاغة الاقناع في المناظرة،منشورات الاختلاف الرباط ط1، 2013، ص 62.

[26]. الجاحظ البيان و التبيين، ج1،ص15.

[27]. المصدر نفسه، ج1ص 7.

[28]. محمد العمري،البلاغة العربية أصولها و امتداداتها، افريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، دط،1999ص198

[29]. الجاحظ ، البيان و التبين،ص 81.

[30]. المرجع السابق،ص199.

[31]. عبد اللطيف عادل، بلاغة الإقناع في المناظرة،ص 68.

[32]. ينظرالمرجع نفسه ،ص 69.

[33]. ابو الحسن اسحاق ابن وهب، البرهان في وجوه البيان، تح: محمد شرف،مطبعة الرسالة مصر،ص 68.

[34]. المصدر نفسه،ص 222.

[35]. المصدر نفسه،ص225.

[36]المصدر نفسه ،ص150.

[37]. ينظر: المصدر نفسه، ص68

[38]. المصدر السابق، ص87.

[39]. ينظر: عبد اللطيف عادل، بلاغة الاقناع في المناظرة، ص 75.

[40]. ينظر: المرجع نفسه،ص76

[41]ينظر: السكاكي، مفتاح العلوم تح:نعيمة زرزور، دار الكتب العلمية بيروت، ط1987،2،ص7

[42]. ينظر: المصدر نفسه، ص 168.

[43]. المصدر نفسه،ص 168.

[44]. ينظر: عبد اللطيف عادل، بلاغة الإقناع في المناظرة، ص77.

[45]. ينظر: السكاكي، مفتاح العلوم ص170.

[46]. حازم القرطاجني، منهاج الأدباء و سراج البلغاء،تح محمد الحبيب بن خوجة، دار الغرب الإسلامي،بيروت،ط1986،3ص62.

[47]. عمر أوكان، اللغة الخطاب ، افريقيا الشرق، المغرب، 2001،ص 118.

[48]. حازم القرطاجني، منهاج الادباء و سراج البلغاء،ص63.

[49]. المصدر نفسه،ص 64.

قائمة المصادر و المراجع:

- ابن المنظور، لسان العرب،دار صادر بيروت، ط1، مج2، 1990
- أبو الحسن إسحاق ابن وهب، البرهان في وجوه البيان، تح: محمد شرف،مطبعة الرسالة مصر
- أبو القاسم محمود بن أحمد الزمخشري، أساس البلاغة ، دار صادر، بيروت،دط.
- أبو الوليد الباجي، المنهاج في ترتيب الحجاج ، تح: عبد المجيد التركي، دار المغرب الإسلامي، المغرب،ط2، 1987

- أبو هلال العسكري، كتاب الصناعتين،تح: محمد البجاوي، منشورات المكتبة العصرية،بيروت.
- أحمد بن فارس ، مقاييس اللغة، دار الجيل بيروت، ط1، مج2، 1991
- الجاحظ، البيان و التبيين، شر:عبد السلام محمد هارون،دار الجيل بيروت
- حازم القرطاجني، منهاج الأدباء و سراج البلغاء،تح محمد الحبيب بن خوجة، دار الغرب الإسلامي،بيروت،ط3،1986
- حبيب أعراج ، الحجاج والاستدلال الحجاجي عناصر الاستقصاء النظري، عالم الفكر، ع1 مجلد3،2001.
- طه عبد الرحمن، في أصول الحوار و تحديد علم الكلام، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء، 2000، .
- عبد اللطيف عادل، بلاغة الإقناع في المناظرة،منشورات الاختلاف الرباط ط1، 2013،
- عمر أوكان، اللغة الخطاب ، افريقيا الشرق، المغرب، 2001 .
- عمر بوقمرة، الأفق الحجاجي في نظرية النظم عند عبد القاهر الجرجاني، علم الكتب الحديث،الاردن،2017.
- محمد العمري،البلاغة العربية أصولها و امتدادتها، افريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، دط،1999ص198.
- محمد مكسي، استراتيجيات الخطاب الديداكتيكي، منشورات رمسيس، الرباط، 1998م
- هيثم سرحان، الحجاج عند الجاحظ "بحث في المرجعيات والنصيات والآليات " المجلة العربية للعلوم الإنسانية،جامعة الكويت، ع/115 2011.
- السكاكي، مفتاح العلوم تح:نعيمة زرزور، دار الكتب العلمية بيروت، ط2،1987.
- عيسى حباشة، مصطلح الحجاج بواعثه و تقنياته، مجلة أبحاث في اللغة و الادب الجزائري بسكرة، ع9،2013.